الباب الرابع

في

الحروب الأهلية

الفصل الأول: كونة العيادي

الفصل الثاني كونة وديان

الفصل الثالث جردة أبي سرحان

الفصل الرابع كونة بني عطية

الفصل الخامس من أجل صبيحة

الفصل السادس حرابة عودة وعامر

الفصل السابع دبش المعازة

الفصل الثامن حرابة زارع

الفصل التاسع حرب العزازمة-

الفصل العاشر حرابة يطة- والظلام

الفصل الأول
في
كونة[1] العيادي

هي أول حرب أهلية اتصل بنا خبرها، وقد قامت بين العربان الذين نزلوا هذه البلاد وبين العيايدة من عربان سينا؛ إذ كان هؤلاء أصحاب الأراضي الواقعة بين العريش والسويس من شِبه جزيرة سينا، فهاجمهم الترابين والتياها والجبارات معًا.

وكان النصر بادئ ذي بدء حليف العيادي، إلا أن أعداءه أجمعوا أمرهم، وقووا صفوفهم، وأغاروا عليه، فكسروه وقوْمه شر كسرة؛ حتى إنهم يقولون إنه لم تقم للعيادي قائمة منذ ذلك الحين.

ثم اصطلح الفريقان واتخذا «جبل المغارة» في سينا حدًّا فاصلا بينهما على أن ينزل العيايدة في غربه، والتياها والترابين وباقي حلفائهم في شرقه.

---

(١) كون الشيء أوجده، و«الكونة» في لغة البدو معناها الحرب.

الفصل الثاني
في
كونة وديان

ظل الجبارات حلفاء للتياها والترابين منذ كسرة العيادي؛ لكنهم اختلفوا بعدئذ من أجل كبش أخذه التياها من رجل من الجبارات يدعى «وديان» وهو من السعادنة.

ولما كان هذا طنيبًا على الجبارات في ذلك الحين قام هؤلاء يدافعون عن طنيبهم ويطلبون من التياها إرجاع الكبش المأخوذ مربعًا كما هي عادة العربان.

فأبى هؤلاء، وقامت بين الفريقين حرب دعوها «كونة وديان» ولا يزال ذكرها باقيًا حتى الآن.

ويظهر أن الكفتين ظلتا متوازنتين إلى أن حدثت الحوادث التي سنأتي على ذكرها في «جردة أبي سرحان».

الفصل الثالث

في

جزيرة[١] أبي سبحان

قلنا في تاريخ الترابين: إنهم استوطنوا سينا بعد أن غادروا الحجاز.

وهناك في سينا كثرت ذريتهم وعاشوا في هناء، ويظهر أنهم ظلوا كذلك إلى أن أصابهم قحط وأصاب زرعهم محل شديد.

فانشطروا شطرين: شطر أم الشمال واحتل القسم الجنوبي من فلسطين، وآخر هبط مصر وانتشر في بقاع كثيرة منها قرية تدعى «البساتين» من أعمال مصر.

٢- أما القسم الذي شمل[٢] فإنه اصطدم في طريقه بأصحاب البلاد الأصليين من جبارات، وأبي كشك، وجرامنة وغيرهم، فاضطر إلى محاربتهم.

ولكنه لما كان دونهم من حيث العدة والعدد فإنه لم يستطع مقاومتهم، واستنجد بالفريق الذي هبط مصر؛ إذ كان هذا قويًّا.

والنجاب الذي ذهب إلى مصر ليستنهض همم إخوانهم فيها هو «علي أبو عويلي» الملقب بـ(قزعور)[٣].

٣- هب هؤلاء من مكامنهم وانسلوا إلى نجدة إخوانهم من كل حدب وصوب. فألفوا حلفًا منهم (أي ترابين) ومن التياها والعزازمة.

---

(١) «الجردة» في أصل اللغة الثوب البالي. و«الجريدة» جماعة الخيل لا رجال فيها. والقصد منها هنا الحرب.

(٢) أي سار نحو الشمال، وهذا تعبير مألوف عند العربان.

(٣) هو جد الزريعيين والعدوين والعمور.

ومما يروونه أنه لم يبقَ منهم في مصر من يستطيع حمل السلاح إلا واشترك في الحملة التي سيقت إلى جنوبي فلسطين بقيادة العبد «أبي سرحان»[١].

ولذلك سميت حملتهم هذه «حملة أبي سرحان» كما قلنا في رأس هذا الفصل.

وعدد رجالها يقرب من الألف بين خيال وهجان.

وكان ذلك قبل ٣٠٠ سنة تقريبًا[٢].

٤- قلنا: إن قسمًا من التياها كان حليف الترابين العزازمة، وأما القسم الآخر فقد ظل حليفًا للجبارات.

وهذا الفريق كان بقيادة «سليم بن عطية» وكان هذا قديرًا في الحرب، خبيرًا بفنون السياسة. ومما يروى عنه أنه أرسل من قبل الجبارات ليكتشف حقيقة نوايا خصومهم التياها والترابين.

ولما أقبل عليهم علِم القوم ما يبطن لهم، فقال عقيدهم إليهم: انظروا! سأهديه بنشًا وسيفًا، فإذا وضعهما تحت فخذه علمنا أنه لا يعبأ بنا، وأن خصومنا أقوياء؛ وإذا لبس البنش وتقلد السيف علمنا أنهم ضعفاء، ولا قبل لهم بمحاربتنا.

ولما وصل أهداه البنش والسيف كما فكر، فأخذهما هذا ووضعهما تحت فخذه، فأيقن القوم أن خصومهم أقوياء.

وقد كان الجبارات فعلا أقوياء؛ حتى إنهم لم يستمعوا لنصائح «سليم بن عطية»

---

(١) هو عبد من عبيد الترابين اشتهر بالفروسية والجرأة اللامتناهية. وعلى قول: إنه هو رئيس «ترابين البساتين» وكانت مهمته المحافظة على درب الحج بين مصر والحجاز.

(٢) وهناك من يدعي أن هذه الحملة حدثت قبل دخول إبراهيم باشا لهذه البلاد ١٨٣١م أو ١٢٤٧هـ بعشر سنوات. ذلك لأن الذي طلب الجردة هو شيخ التياها «سليم بن عطية» والد سالم وعودة وعامر، والذي قتل سالمًا هو جندي من جنود إبراهيم باشا.

الذي رجع وأخبرهم ونصح إليهم ألا يتحرشوا بخصومهم وأن يكتفوا بحصارهم إلى أن يقتلهم الجوع والظمأ؛ ذلك لأنهم بعيدون عن منازلهم، ولا يستطيعون تحمل مشاق السفر والجوع زمنًا طويلا.

إنهم لم يعيروا هذه الأقوال سمعًا، بل اعتزموا منازلة الخصم، فنازلوه فوقعت الواقعة في «كوز العز»[1] وظلت نارها مشتعلة حتى منتصف النهار، ثم وقعت أختها في «الشويحي» وكانت أشد هولًا منها، فكان النصر حليف التياها وحلفائهم الترابين. وولى الجبارات الأدبار، وقد تخلوا عن كثير من منازلهم في «معين» و«الشلال» و«الدماث» فاحتلها خصومهم.

٥- رحل الجبارات على أثر تقهقرهم هذا عن منازلهم وتفرقوا في البلاد، ونزلوا «مرج ابن عامر» و«وادي البيدان» ونواحي أخرى من أعمال جبل نابلس؛ وقد رافقهم في رحيلهم هذا قسم كبير من حلفائهم سكان جبل الخليل.

فعز على «الجزار» حاكم عكا في ذلك الحين أن يغلب الجبارات على أمرهم، فقام يحرضهم على الانتقام وأخذ الثأر.

وظل مثابرًا على تحريضه حتى قام هؤلاء يلمون شعثهم، وقد استنجدوا بالسواركة أيضًا وكان هؤلاء آنئذ متوطنين في سينا فذهب منهم ستة وعشرون خيّالا لنجدتهم.

ويظهر أن خبر هذه النجدة أثر على نفسية الجيش المحارب أمامهم، إذ بدت طلائع اليأس تدب في نفوسهم، وكاد الفشل يسري إلى صفوفهم؛ وفي ذلك يقول الشاعر السويركي:

---

(١) هضبة مرتفعة ارتفاعا قليلا في وسط أراضي الشلاهبة من الترابين.

تخـــضر يـــا تـــل منـــاع
ســـتة وعـــشرون خيـــال
خلـــوا ظعـــنهم بـــداري

٦- رجع الجبارات إلى منازلهم، وتمكنوا من استرجاع قسم كبير من أراضيهم بعد أن وقعت بين الفريقين حروب دامية أهمها في «تل الصافي» كان النصر فيها حليف الجبارات؛ وكذلك الحال في المعركة التي دارت رحاها بين «بعلين» و«صميل» من أعمال جبل الخليل؛ وفي هذه المعركة يقول الشاعر البدوي:

بـــين صـــميل وبعلـــين يـــا رب تعـــين
ســـبعين شـــوحة البـــدار[1]

٧- اغتاظ «أباظة»[2] لهذا الخبر، وعزَّ عليه أن يرى حلفاءه الترابين في تقهقر وانخذال، فقام من فوره وساق على الجبارات حملة مؤلفة من «ابن شديد» وقومه من عربان مصر؛ وكانت الحملة برئاسته فنزل في بحر بضعة أسابيع في «برير» وأخذ يترقب الفرض ليفتك بالدقس «زعيم» الجبارات في ذلك الحين.

كان الدقس يومًا من الأيام يسير حول «تلك النجيلة» ومعه ثلاثة من الفرسان هم عواد وخبيتان وإبراهيم بن عودة. فأغار عليهم «أبو شديد» وكان أباظة قد عهد إلى هذا بقطع رأس الدقس؛ فانقض الدقس على ابن شديد، ولكنه لم ينجح؛ إذ إن طبنجته لم تثر، فركض ابن أخيه خبيتان لنصرته، وتمكن هذا من ابن شديد فقتله، وما كاد العرب يرون رأس قليدهم يهوي إلى الأرض حتى ولوا الأدبار.

وفي ذلك سار المثل الآتي بين البدو:

---

(١) أي: قتل سبعين رجلا في كل قطعة من الأرض تأخذ كمشة من البذار.
(٢) كبير عائلة الأباظات في مصر، وقد كانوا من الأمراء النافذين فيها.

الصيت صيت الدقس

والفعل فعل خبيتان

٨- ويظهر أن هذه الحادثة كانت سببًا في ازدياد نقمة الأباظات على الجبارات، وأن نقمتهم هذه سرت مع الزمن إلى إبراهيم باشا، إذ قام هذا يصب عليهم سخطه بحجة أنهم أبو الانقياد إليه؛ وبعد أن كانوا أرباب مال وحلال وخيل وعِز- شتتهم وسمح للعربان المجاورين لهم أن ينهبوهم، ثم ساق عليهم حملة كبيرة اضطرتهم إلى الخضوع، وأسَر منهم من أسر ونفى من نفى.

٩- ولم تقم بين الجبارات وبين خصومهم حرب أخرى بعد تلك الحوادث الدامية التي انتهت باتخاذ «قنان السرو» حدًّا فاصلا بينهم.

فرحل أبو كشك وجماعته من هذه الديار ونزلوا «العوجا» بالقرب من يافا، ورحل الرومة فنزلوا «وادي الصرار»، وكذلك الجرامنة فإنهم رحلوا واستوطنوا الأراضي الواقعة حول قلعة «رأس العين».

الفصل الرابع
في
كونة بني عطية

ما كاد التياها والترابين يخرجون من المعامع المتقدم ذكرها منتصرين حتى فوجئوا بأعداء أشد وأقسى، وهم «بنو عطية».

وقد اختلف في سبب مجيء بني عطية إلى هذه البلاد:

فمن قائل: إن الجبارات استنصروهم وحرضوهم على مقاتلة التياها والترابين، ومن قائل: أنه أصابهم قحط شديد، فغادروا مواطنهم في «الحرة» و«تبوك» وظعنوا إلى الشمال، لا بقصد الفتح والتوسع، بل على أمل أن يجدوا مراعي خصبة لمواشيهم، فاضطروا بطبيعة الحال أن يصطدموا بأهل البلاد؛ إذ ما كادت أقدامهم تطأ (الفرعة)[1] حتى هلعت قلوب هؤلاء «من تياها وحناجرة وترابين» وقاموا يحاربونهم، وجرت بين الفريقين معامع جمة في «المشاش»[2] و«عرعرة» و«رخمة» و«أبي تلول» وانهزم بنو عطية بالرغم من أن «قليدهم»[3] كان «بصيص» وهو من الفرسان الذين لا يصطلى لهم بنار.

وفي ذلك يقول الشاعر الترباني:

دارك تبـــــــوك ودارنـــــــا ســـــــاحل الخـــــــان

---

(١) أخصب مرعى للمواشي في قضاء بئر السبع على الإطلاق، يبعد عن المدينة عشرون ميلا للشرق، وهو عبارة عن سهول مترامية الأطراف خصبة التربة.

(٢) والقول السائد: أن بني عطية هم الذين حفروا آبار المشاش.

(٣) أي: القائد الذي يقلدونه السيف ليقودهم و«العقيد» الذي يولونه أمرهم فيشهر الحرب ويعقد الصلح.

حجـــــــرك وطنـــــــا مـــــــا يعقـــــــب محلنـــــــا
التوتـــــــون والبطـــــــيخ دونـــــــو خـــــــشب زان
وحـــــــضن تحـــــــسك بلـــــــلي عنـــــــدنا

وقد نفع عربان بئر السبع في حروبهم هذه مؤازرة تياهة البر لهم؛ إذ جاء من هؤلاء (٢٠٠ دلول بأربعمائة زناد).

وعلى قول: إن أهالي جبل الخليل أيضًا كانوا في صف التياها والترابين، فانكسر بنو عطية شر كسرة على أثر ذلك.

وقد جرت موقعة أخرى في «الحسنة» من أراضي سينا ذبح فيها من المعازة «بني عطية» خمسمائة دلول.

٣- وجرى على أثر ذلك صلح بين الفريقين بوجه «أبي شلحة» من العلامات و«حمد الصوفي» من الترابين و«ابن عطية» المعازي و«محمد أبو تايه» الحويطي واتخذ «خبط العربة» حدًّا بين الفريقين، وكان من شروط الصلح ألا يأتي بنو عطية إلى ديار السبع إلا لابتياع الغلة، على شريطة أن يدفعوا لأهل البلاد خاوة ريالا عن كل حمل يبتاعونه، وألا يمكثوا هنا أكثر من الوقت الذي يقضونه لأجل الاكتيال.

٤- حدثني شيخ مشايخ بني عطية الشيخ سليم أبو دميك، فقال: إن عقيد بني عطية في هذه الحروب كان «صقر بن عطية» لا بصيص، وإن صقرًا هذا هو ابن علي بن عطية وأخو محمد بن عطية جد الشيخ سليم شيخ بني عطية في الوقت الحاضر.

وإن حلفاء بني عطية كانوا الجبارات من عربان بئر السبع، والصقر، والهنادة، وأهل الكرك، وابن فايز «من الصخور»، ومعان الشمالية، والشوبك، وابن عرام «من جبل الخليل».

كما أن خصومهم كانوا الترابين، والعزازمة، والحناجرة، والتياها، وحويطات

بن جازي، والزبن «من الصخور»، والعوران «الطفيلة»، ومعان الحجازية؛ وأن بني عطية اشتبكوا مع أهالي هذه البلاد في عدة مواقع:

أولها في الحسنة من أعمال سينا، ثم في وادي الخليل، وفي رخمة، وأبي تلول، وأحدثها عهدا هي تلك التي حدثت في زمن السلطان عبد الحميد قبل نصف قرن. وقد سميت «كونة رخمة».

كانت أشدهن هولًا إذ قتل فيها أربعون رباعية من الخيل الصافنات وعدد كبير من الفرسان، حتى راحت تلك الواقعة ذكرى بين العربان ومضربًا للأمثال.

الفصل الخامس
من أجل صبيحة

قلنا: عند البحث عن تاريخ الرماضين: إن «رمضان» جد الرماضين و«أرتيم» جد الرتيمات، وأنهما ولدا رجل من شمر، وقد نزلا هذه البلاد واستوطناها قديمًا، وأن أحفاد هذين الجدين عاشوا زمنًا طويلا على وفاق ووئام إلى أن افترقوا حزبين:

واحد بقيادة «العجايزي» و«ابن دغوم» من نسل رمضان، وآخر بزعامة «صياح» و«ضويمر» من سلالة أرتيم.

ولقد جرى بين الفريقين قتال من أجل امرأة وإليك البيان:

(أ) تزوج «العجايزي» من امرأة من جماعة «صياح» تدعى «صبيحة»، وقد نزلت هذه يومًا من الأيام ضيفة في بيت أهلها فأراد ابن عمها أن يكرمها ويقربها. فأبت المرأة بادئ ذي بدء، ولكن ابن عمها أصر قائلا: إنهم يودون أن يذبحوا شاة لا لإكرام صبيحة فحسب بل لأجل أخذها من بعلها «العجايزي» والتزوج منها، فشردت وأتت بعلها، وحدثته ما جرى؛ فأقسم ألا يرجع قبل أن ينتقم لنفسه ولعرضه المهان.

(ب) وقعت حروب دامية بين الفريقين في «طويل الزنابيل»[1] كان النصر فيها حليف «العجايزي» وقومه، واضطر صياح وضويمر وقومهما إلى الرحيل، فنزلوا «السكرية» من أراضي الوحيدي.

وفي ذلك يقولون:

---

(١) اسم موقع بين السموع من جبل الخليل وأراضي الرماضين.

مـن هـواك يـا صـبيحه صـار للمقطـان[١] ريحـه والكـل رمـى سـطيحه[٢]

(ج) قام الوحيدي على أثر ذلك وأرسل إلى العجايزي وابن دغوم يقول:

طلـــق الـــدالي[٣] جـــراد[٤] مـــا تكونـــوا في الـــبلاد

ألا تنزلـــوا تاطريـــت[٥] وتزرعـــوا منهـــا وغـــاد

فأرسل إليه العجايزي وابن دغوم الجواب الآتي:

روحـــوا يـــا أوبـــاش روســـكو روس الأكبـــاش

تـــاكلوا جميـــز غـــزه تحـــابوا المـــشمش بـــلاش

نحنـــا بناكـــل العنـــب الغـــالي

بالمـــشاوير الطـــوالي

مـــا انـــت خـــابر واد الغـــماري

يـــوم خيلكـــو روحـــت بـــلاش

لكن ذلك لم يردع الوحيدي وحلفاءه صياخ وضويمر عن عزمهم، بل أغاروا على أولاد رمضان، وجرت بين الفريقين موقعة ثانية في «الشمسانيات» الواقعة على طريق الخليل كان النصر فيها حليف أولاد رمضان.

(د) جمع الوحيدي كل ما أمكنه جمعه من العربان، وأعاد الكرة على أعدائه بجيوش وفيرة العدد، وجرت بين الفريقين موقعة ثالثة في «الشمسانيات» كان

---

(١) الفتيل الذي كانوا يستعملونه لإشعال البارود.

(٢) أي: عباءته.

(٣) عبد من عبيد الوحيدي.

(٤) اسم سيد العبد.

(٥) اسم خربة كانت للرماضين هي واقعة على حدود أراضي الضاهرية.

النصر فيها حليفه، فأخذ يضيق الخناق على أولاد رمضان حتى ضاقت البلاد بهم زرعًا فرحل فريق منهم إلى مصر وآخر إلى شرق الأردن. ولم يبقَ في خربة السموع سوى أفراد قلائل وهم الذين أقعدهم عجزهم عن المسير.

(هـ) وحدث بعد ذلك أن كان فريق من النساء اللواتي لم يستطعن الرحيل مسافرات إلى المجدل لأجل بيع أغنامهن، فرآهن الوحيدي واشترى منهن، ولكنه عندما علم أنهن من نساء خصومه -أولاد رمضان- أمر عبيده بأن يفعلوا بهن الفعل الشنيع.

فأبى الرتيمات أولاد عم رمضان -بالرغم من العداء الذي مر ذكره بينهم وبين أبناء عمهم- أن يهتكوا عرض نسائهم.

فأرسل أحدهم «أبو ماسوح» خبرًا إلى أولاد رمضان الموجودين في مصر وفي الشرق كي يحضروا على جناح السرعة، فجاءوا كلهم، واجتمعوا في السموع، فتفاوضوا وقر رأيهم على مهاجمة الوحيدي، وقد تحرك الركب في صباح اليوم التالي، فجاءوا إلى «الدوايمة» وهناك استخبروا أن الوحيدي موجود في «دكرين البردان» من قرى جبل الخليل فامتطوا ظهور جيادهم وأغاروا عليه وعلى عبيده الذين معه فقتل «واكد الوحيدي» برمح أبي ماسوح من جهة وجرح «أبو ماسوح» من الجهة الأخرى.

وبقتل الوحيدي انتهى الخصام؛ فسار كل فريق في طريقه، ورجع أولاد رمضان على أثر ذلك إلى أراضيهم ونزلوا الخويلفة.

(و) انقضى بعد ذلك زمن غير قليل دون أن يحدث بين الفريقين قتال، ولكن النفور كان سائدًا بينهما، فأراد الوحيدي ثابت «ابن القتيل» أن يضع حدًّا لهذا النفور، وطلب الصلح، وأوفد سبعة من رجاله إلى منازل الرماضين، ولكن الرماضين أبوا

أن يصالحوهم بل قتلوا الرجال السبعة الموفدين؛ وبهذا تجددت الحروب بين الفريقين.

(ز) جمع كبير الوحيدات على أثر ذلك قومه وأخذ يستعد لمهاجمة الرماضين. فعلم كبير الرماضين «سلام أبو شعرة» و«الحاج عليان الزغارنة» باستعداد الوحيدي عندما كانا في سوق غزة.

فأرسل الحاج عليان ابن أخيه سلامًا إلى قومه لينذرهم، فجاء سلام العرب، ولكن الوقت كان ليلا فلم يشأ إزعاجهم بل نام على مقربة منهم، وفي هذه البرهة كان الوحيدي قد وصل منازلهم، فأغار عليهم، وذبح منهم من ذبح ثم كسر الباقين شر كسر.

والموقعة هذه جرت في «المكسر» بالقرب من «خويلفة».

(ح) رحل الرماضين على أثر هذه الكسرة من بلادهم ونزلوا «أم تنان» بالقرب من عرعرة.

(ط) ذهب كبيرهم «سلام أبو شعرة» إلى التياها وقد كانوا آنئذ نازلين حول «الوادي الأبيض» وحرضهم على محاربة الوحيدي ووعدهم بأن تكون بلاده التي اغتصبها الوحيدي منه رهن تصرفهم، وألا يأخذ الرمضاني إلا ماله المغصوب الذي يسترجع من يد الغاصب إذا عرف أنه ماله.

فجاء التياها وعلى رأسهم ابن عطية وحاربوا الوحيدي فكسروه واستولوا على قسم كبير من الأراضي التي بأيدي الجبارات ثم عقدوا معهم صلحًا اقتسموا بموجبه الأراضي الموجودة بأيديهم في الوقت الحاضر.

وبهذا انتهت الحروب التي قامت من أجل «صبيحة» والله أعلم بالصواب.

الفصل السادس

في

حرابة[1] عودة وعامر

تلك حرب تيهية داخلية حدثت في أوائل القرن الغابر، وبعد أن كانت بين أخوين من العطاونة هما (عودة وعامر) ولدي سليم العطاونة تلظت فأصاب شررها أفخاذ التياها كلهم فانشطروا شطرين.

ثم امتد لهيبها إلى جميع القبائل الضاربة خيامها في هذه الديار، فقامت حروب راح فيها من الأنفس والأموال عدد كبير؛ وبعد أن خمدت نيرانها أو كادت عادت فاشتعلت وكانت في هذه المرة أقوى من الأولى، ولم تخمد بالمرة إلا بعد عشرين عامًا.

٢- يحدثك العربان عنها كما كان الأقدمون يحدثونك عن حروب بني هلال. ولا بد أن يتحمس المحدث عند ذكر أحد الفريقين بالنسبة إلى هواه وميل عشيرته، فإذا كان ينتمي إلى إحدى العشائر التي كانت حليفة عودة ذكر لك بإعجاب ما يعرفه عن عودة ومقدرته في الفروسية وجرأته في الطعن والنزال وقهر الأعداء وما إلى ذلك. والعكس بالعكس.

٣- اختلفوا في تعيين التاريخ الذي وقعت فيه هذه الحروب والمدة التي ظلت قائمة خلالها:

فمن قائل: إنها وقعت عام ١٨٥٦م، ومن قائل: إنها انفجرت قبل مائة وعشرين عامًا ١٨١٣م، وانتهت بعد عشرين عامًا ١٨٣٣م، وأعتقد أن الرأي الثاني هو الأصح لأن محدثي فيه كان «الحاج حرب العطاونة» وهو ابن عودة نفسه.

---

(١) يقول البدو «حرابة» بدلا من حرب.

كما أنه حضر الأيام الأخيرة الحرب المذكورة وكان آنئذ شابًّا يافعًا.

وأما الشيخ حسن العطاونة فإنه يعتقد أن حرب عودة وعامر حدثت بعد أن شاخ عودة على عشيرته بسنة، وكان آنئذ في الثلاثين من عمره، وأن عودة ما شاخ إلا بعد أن قتل أخوه سالم العطاونة من لدن جند إبراهيم باشا.

فإذا علمنا أن إبراهيم باشا افتتح هذه البلاد عام ١٨٣١م/ ١٢٤٧هـ تكون هذه الحرب قد حدثت -على رأيه- حول سنة ١٨٣٣م.

٤- وقد اختلفوا أيضًا في ذكر السبب الذي من أجله قامت تلك الحرب:

فمن قائل: إن الغيرة أصابت «هدبة بنت أبي حجاج»[١] امرأة عامر، إذ ظنت أن نساء الحي يملن إلى بعلها، فقامت تسلقهن بلسان من حديد.

ووصل خبرها إلى «طليحان بن أبي شنار»[٢] فأشار على نساء الحي أن يضربنها، فضربنها، ويظهر أن عامرًا كان غائبًا عن منازله، وأنه ما كاد يرجع ويسمع بما جرى حتى ثارت براكين غضبه؛ فقام ورحل، وأقسم ألا يرجع إلى منازله قبل أن يقطع رأس طليحان وأن يمحو عن وجه البسيطة كل رجل ينتمي إلى أبي شنار.

ولم يجد فيه نصح أخيه عودة نفعًا بل «رد النقى»[٣] عليه أيضًا وعلى الذين كانوا في حماه.

---

(١) من الحناجرة.

(٢) كان هذا منفيًّا في بلاد الأتراك، وعلى قول: إنه اشترك معهم في حرب المسكوب ورجع إلى بلاده، وقد كان على جانب عظيم من الدربة في السيف وركب الخيل وطعن الرمح كما أنه كان على جانب عظيم أيضًا من الغرور.

(٣) أي: أشهر الحرب. راجع فصل «الغزو» من كتابنا «القضاء بين البدو».

النقب
الجبال التي تراها وراء المؤلف هي قسم من (النقابة)
(أخذت هذه الصورة من لدن فرع التصوير للجالية الأمريكية بالقدس)

٥- حدثني «الحاج حرب العطاونة» وله من العمر الآن ما ينوف عن المائة سنة قال: (اكسب صلاة النبي، عندي هذه الليلة واجتماعي بك تسوا الدنيا بما فيها، اسمع سأحدثك بالصدق، والله شاهد على ما أقول. أنا الحاج حرب، عودة أبي، وعامر عمي، وسليم جدي، ولدتني أمي عند بدء حرابة عودة وعامر، وظلت نار هذه الحرب مشتعلة حتى يفعتُ وأصبح باستطاعتي أن أركب الخيل.

لقد كنا في هذه البلاد الحكام وكنا الأمراء الفاعلين لما نشاء التاركين لما نكره، كما أنك اليوم الحاكم المسيطر على هؤلاء العربان، ولا بد لي من الاعتراف أمامك يا ولدي بأن نفوسنا كانت كبيرة -بل أكبر من اللزوم- ورءوسنا كانت شامخة لحد الجنون، فابتلانا الله بما نستحق.

كان موسى أبو سلامة أبو شنار صديقًا لوالدي عودة من العظم إلى العظم

وكانت «هدبة بنت أبي حجاج» امرأة عمي عامر، وحدث أن غارت هدبة من موسى بسبب مسائل نسائية وقالت عنه: «إن هذا الفاعل التارك أبو شنار، العرص الذي خنثته الدولة» وغير ذلك من الأقوال التي أثارت حفيظة بناته فقمن يثأرن لأبيهن، فمسكنها من شعرها، وضربنها حتى استلقت على قفاها، فتناولن قضيبًا كان قريبًا منهن ووضعنه في فرجها.

عز الأمر على والدي فراح يسترضي امرأة أخيه، ورجاها أن لا تذكر أمامه شيئا مما جرى، خشية أن يقع فساد بينه وبين صديقه؛ ولكن هدبة لم تعمل بوصيته، بل راحت تخبر عمي بما جرى؛ فثارت براكين غضبه في قلبه، وقام من فوره فهدَّ بيته، وهجر منازله، وأقسم ألا يرجع إليها قبل أن يثأر لنفسه ليس من أبي شنار فحسب بل من أخيه عودة أيضًا.

نزل عمي الشريعة، فاستغل الترابين الفرصة وأخذوا يحرضون أبي عليها ولم تنجح واسطة الوسطاء الساعين للصلح، بل أخذ كل فريق يتأهب للقتال[1]، ويعد

---

(١) ولقد زاد الطين بلة أن هذا الخلاف نشب في وقت كانت نيران الحقد فيه تغلي في صدور الحكوك ضد عودة من أجل حادثة لا نرى بدًّا من ذكرها على الهامش لأهميتها ولصلتها الوثقى به:

كان «سليمان الهزيل» آتيًا من غزة مع تسعة رجال من الحكوك والقديرات، وعندما وصلوا أرض «البها» التقوا بزجلين من العطاونة هما «يونس بن عودة» و«زيدان بن سالم» فأخذ سليمان يسأل الرجلين عن السبب في وجودهما هناك، وكانت أسئلته تدل على امتهانه إياهما، فأجاباه بخشونة واشمئزاز أنهما هناك من أجل زرعهما، وقد كانا فعلا يبحثان عن حالة الزرع.

فشتمهما، فشتماه، وكأن عملهما هذا قد أغضبه، فاستل سيفه من نصابه وضرب واحدًا منهما هو «يونس» وجرحه في وجهه. ولما رجع يونس إلى أهله وعشيرته شكا إلى والده عودة أمره، فقام هذا ينتقم لابنه، وأقسم ألا يرجع قبل أن يقطع رأس الهزيل، فتداخل كبار العربان في الأمر، وأرادوا أن يصلحوا ما بينهما خوفًا من ازدياد شقة الخلاف، وقد انتهت وساطتهم بأن يدفع الهزيل إلى عوده دية رجل كامل، وأن يرحل من بلاده إلى بلاد الشرق. وقد أمهل الهزيل مدة معينة لأجل الرحيل ودفع فعلا أربعين جملا إلى عودة.

لكنه قبل أن يحين ميعاد الرحيل حدث الخلاف المتقدم ذكره بين عوده وأخيه عامر، فاغتنم الهزيل هذه الفرصة ووقف هو وربعة الحكوك يناضلون في صفوف حليفهم عامر.

العدة لمنازلة الفرسان.

راح عامر من جهة وعودة من جهة أخرى يستنجدان العشائر، فوقف جميع التياها «خلا العلامات والشلاليين» والترابين والعزازمة وجبل الخليل بجانب عامر ووقف العلامات والشلاليون من التياها وكذلك الجبارات والعزة والعملة بجانب عودة، وقامت حروب دامت في بادئ الأمر أحد عشر عامًا.

اشتبك الفريقان لأول مرة في أم «دبكل» وكان النصر فيها حليف أبي، فجرح الهزيل، وكاد اليأس يدب في قلب عمي وحلفائه الهزيليين.

وصادف في تلك اللحظة أن وقع أخي يونس على الأرض مضرجا بدمه، فمات على الأثر.

وكان هذا السبب في انتشال الفريق المغلوب من وهدة اليأس، فعاودهم الأمل، وأعادوا الكرة، ولكن بعزم وشدة في هذه المرة، وما لبثوا حتى عقدت راية النصر فوق رءوسهم.

رجع كل من الفريقين إلى منازله يقوي صفوفه، ويستعد لمنازلة خصمه بحزم أشد من الأول، ولم يمضِ بضعة أيام حتى التقى الجمعان في «البرشين» من أراضي العزة، وفي هذه الموقعة جرح عمي عامر فنقلوه إلى خان يونس لأجل مداواة جرحه.

وهناك التقى بالهزيل الذي جرح في الموقعة الأولى، وظلا معًا حتى طابت جراحهما، فغادرا الخان وفي قلبيهما ما فيهما من الحقد والغضب وحب الانتقام.

وما كادا يصلان إلى منازلهما حتى أخذا يستعدان للطعن والنزال.

أفجرت بين الفريقين موقعة ثالثة في «جسير» ورابعة في «زيته» وخامسة في مكان بين «أدنة» و«ترقومية» وفي مواقع أخرى غير ذات أهمية، إلا أن النصر كان في

جميع هذه المواقع حليف عمي وحلفائه الترابين.

وصادف في تلك الأثناء أن جاء «الهنادة» من عربان مصر إلى هذه البلاد بسبب غضب الخديوي عليهم فأنزلهم أبي منزلا رحبًا، فرأى هؤلاء من واجب الشهامة والمروءة أن يشتركوا معه في قتاله، فاشتركوا وقامت بين الفريقين على أثر ذلك معارك جديدة كانت أشد من السابقة.

ولقد تمكن عمي من أحد الفرسان الطيحاوية وقتله، فهاج على أثر ذلك هائجهم وانقض كبيرهم «يونس الطيحاوي»[١] على عمي عامر فقتله.

ولا صحة لما يقولون من أن الطيحاوي هذا قد استشار والدي قبل أن يقدم على القتل[٢].

وبموت عمي عامر، ورجوع الهنادة إلى مصر خبت نار الحرب بعد أن ظلت مشتعلة أحد عشر عامًا.

إن ابن عمي سليمان أبى أن يحارب أبي، وأراد أن يصلح بين الفريقين المتعاديين؛ إلا أن الترابين رفضوا ذلك واشتعلت نيران الحرب ثانية ودامت في هذه المرة تسع سنين.

ولكن ابن عمي سليمان لم يقف في هذه المرة بجانب الترابين كما فعل أبوه، بل رجع إلى صف والدي، وأخذ يناصره، فجمع حوله الظلام والشلاليين والعلامات

---

(١) والقول الشائع بين العربان أن الذي قتل عامر هو «كريم الطيحاوي الهنداوي» لا يونس كما جاء في رواية الحاج حرب هذه.

(٢) يروي بعضهم أن كريم الطيحاوي عندما اقترب من عامر في المعمعة وأيقن أنه لا محالة قاتله استشار عودة قبل أن يصوب إليه بندقيته وسأله قائلا «الفرس أم الفارس» أي أتريد أن أقتل الفرس أم الفارس الذي عليها. ويقولون: إن عودة أشار بقتل الفارس.

وفريقًا من العزازمة «عائلة ابن حماد وابن كريشان وبني سويعد» وعائلة بني عمرو «من مشايخ جبل الخليل» وتياهة البر والصقيرات والبنيات والشتيات.

إن معظم هؤلاء العربان أتوا عن طريق النقابة[١] والملح[٢] حتى وصلوا إلى المصفرة من أراضي الجهالين، وهناك قدمت للوافدين قصاع مملوءة بالأرز واللحم، وكنت أنا من الآكلين.

إن تلك السنة معروفة بين العربان «بسنة حودة» لأنهم حادوا عن الطريق المعتادة وأتوا للنجدة عن طريق غيرها[٣].

وقد قمنا من المصفرة ونزلنا الدروة بالقرب من العروب على طريق الخليل، ومنها ذهبنا إلى بيت نتيف وادنة وتل الصافي والخربة والتينة والبرشين فبيت جبرين ووادي الحسى والجلادية، وفي أكثر هذه المواقع جرت حروب دامية كان النصر فيها إلى عمي عامر وحلفائه الترابين.

ولما وصلنا إلى «السكرية» صار الجبارات من حلفائنا، ولكن أعداءنا لم يمكنونا من تهيئة عددنا، بل هاجمونا وجرت بيننا وبينهم موقعة كبيرة في مكان واقع بين «حتة» و«جسير» ذبح فيها عدد كبير من الفريقين، وفي هذه المرة أيضًا كانت الغلبة للترابين وفي ذلك يقول شاعرهم:

بـــــين حتـــــة وجـــــسير

---

(١) في اللغة نقب الحائط: خرقه، وفي عرف البدو النقب: هو الطريق في الجبل.

(٢) اسم مكان في شرق السبع.

(٣) من غرائب الصدف أن الإنكليز قاموا بمثل حركة الالتفاف هذه عند مهاجمتهم السبع واحتلالهم إياها خلال الحرب الكبرى.

انقطـــــع ميتـــــين ســـــير[١]

وقد استنجد أبي بالسواركة وتياهة البر[٢] فأبدى هؤلاء استعدادهم للنجدة وأخذوا يفكرون في تطويق الترابين من الجنوب على أن يحاربهم عودة وحلفاءوه من حيث كانوا؛ فاتصل خبرهم هذا بالترابين ورأى هؤلاء أن الحكمة تقضي عليهم أن يقاتلوا السواركة في منازلهم قبل أن يشرعوا في حركة التطويق، وبالفعل أسرعوا بالإغارة عليهم، فحاربوهم في منازلهم بالشيخ زويد ووادي العريش وغلبوهم على أمرهم ثم عادوا على جناح السرعة، وأغاروا علينا في مكان بالقرب من «زيتة» غربي بيت جبرين.

ولما كانت هذه هي المعركة الفاصلة استماتت كل من الفريقين في سبيل إحراز النصر على الآخر، حتى إن ابن عمي سليمان لم يشأ أن يغادر ساحة الوغى مع أنه خسر فيها يده ثم رجله وكتفه[٣] بل ظل يناضل واضعًا رسن جواده في فمه وبقي على هذا الحال حتى خارت عزيمته وفقدت قواه فوقع على الأرض مضرجا بدماه، وقد نقلناه فورًا إلى «دكرين البردان» حيث توفاه الله ودفناه في بيت نتيف، وما كاد النهار يدبر والليل يجن حتى كان لواء النصر معقودًا لخصومنا.

ولم يمضِ على هذه الواقعة بضعة أشهر حتى مات والدي كمدًا فدفناه في «وادي النمل» بجوار عسقلان، ولم نعد نسمع لهذه الحرب ذكرًا).

---

(١) أي: حزام.

(٢) لقب أطلقه تياهة فلسطين على إخوانهم في سينا.

(٣) يقال: إن الذي قتله حنجوري؛ إذ كان الحناجرة يقاتلون في صف عامر والترابين.

الفصل السابع
في
دبش المعازة[1]

حدث في البرهة التي مرت بعد حرابة عودة وعامر أن استنجد ابن جازي عقيد الحويطات بالترابين والعزازمة؛ فأنجده هؤلاء، وقاموا يحاربون وإياهم بني عطية والمجالي والحجايا.

فالتقى الفريقان في «الرصيف» من أعمال الشراة، وقد كانا مؤلفين من العربان الآتية أسماؤهم:

الصف الأول	الصف الثاني
الحويطات	بنو عطية
الترابين	المجالي
العزازمة	الحجايا
الليائثة	الجبارات
النعيمات	

وكان النصر في موقعة الرصيف للحويطات وحلفائهم، وقتل من المجالي شيخهم «مصلح» ونهبت أغنام بني عطية كلها من قبل الترابين والعزازمة. فأتوا بها إلى هذه البلاد. ولما كان الجبارات ميالين لبني عطية وحلفائهم الآخرين فقد أخذوا يساعدونهم.

وقام منهم حسن الوحيدي وعيد الدقس يشكوان إلى ولاة الأمور ما فعله

---

(١) بنو عطية.

الترابين والعزازمة بغنم أعراب شرق الأردن.

وقامت هذه بالفعل بمساعدتهم، فاسترجعت الأغنام المنهوبة، ولا تزال تلك السنة معروفة بين البدو بـ«سنة دبش المعازة».

الفصل الثامن
في
حرابة زارع

١- مر في «تاريخ الترابين» أن دهشان أبا ستة من الغوالي قتل محمد بن حمدان الصوفي من النجيمات، ورحل عن منازله، ونزل مع الهزيليين من التياها، وقد كان عقيدهم «زارع الهزيل» في ذلك الحين.

٢- إن هذه الحادثة من جهة، وعدم رضاء الترابين بالنتيجة التي آلت إليها «حرابة عودة وعامر» من جهة أخرى -إذ كانت قسمتهم في الأراضي التي اغتنموها في الحرب ضيزي- جعلتهم يحقدون. فراحوا يتحينون الفرص، وما كانت سنة ١٨٧٥م حتى بدت هذه جاهزة إذ كان «صقر أبو ستة»[١] قد شرع في تحريض زارع على العزازمة نكاية بصديقهم «حماد الصوفي»[٢] ونجح في إقناعه أن المصلحة تقضي بطردهم من «العراقيب» فطردهم.

٣- قامت قيامة الترابين على أثر ذلك، وأقسم حماد الصوفي أنه لا بد من أن يقهر التياها، ويضع بيته على خويلفة، ويشرب القهوة من مائها، فسمع بذلك «الحاج مصطفى العقبي بن زين» وقال:

يـــا راكـــب الـــلي مـــا لحقنـــا عـــداده[٣]

---

(١) والد القاتل دهشان.

(٢) ابن المقتول وعقيد الترابين في ذلك الحين.

(٣) الذي لا نهاية له.

أشـــــقر شراري مـــــن ركـــــاب الـــــضباعين[١]
أكـــــرب[٢] بطـــــان[٣] الهـــــيج[٤] وحـــــضر ذهابـــــه[٥]
وخليـــــه مثـــــل الـــــلي عـــــلى الجمـــــر يـــــا طـــــين[٦]
فوقـــــه صـــــبي يقطـــــع فجـــــوج الـــــسرابه
عـــــرار[٧] لـــــن وديتـــــو بـــــالعلم يـــــشفين
كـــــزو[٨] عـــــلى حمـــــاد يـــــا نعـــــم نابـــــه[٩]
تلقـــــاه مكنـــــز[١٠] مثـــــل صـــــقر الـــــشياهين
بيـــــت وســـــيع مفهقـــــات[١١] أبوابـــــه
بـــــدلال تـــــوهج مـــــن صـــــلا النـــــار تـــــشكين
لابـــــو محمـــــد[١٢] ضـــــد صـــــفر النيابـــــه[١٣]

---

(١) شرارات مشهورة إبلهم بالركض.
(٢) شد.
(٣) حزام.
(٤) الجمل.
(٥) مؤنة.
(٦) يدهس.
(٧) اسم الرسول الذي أرسل معه القصيدة.
(٨) سربه.
(٩) مرحى له.
(١٠) جالس بعظمة.
(١١) مفتوحة.
(١٢) لقب حماد الصوفي.
(١٣) الشيوخ المحترمون من أنباها.

بلـــــغ جـــــوابي يـــــا فهـــــد لا تـــــونين[١]
نـــــصار أبـــــو عـــــويلي[٢] مثـــــل ســـــطو الاعقابـــــه
مـــــن خـــــوف هرجـــــات الفـــــشل فالـــــدواوين
وعيـــــال أبـــــو ســـــته مثـــــل الزغابـــــه[٣]
في مـــــصادم الفرســـــان رجـــــال ســـــجيعين[٤]
أولاد أبـــــو مغيـــــصيب أربعـــــتهم ديابـــــه
يطلقـــــوا عـــــاهوش[٥] مثـــــل القعـــــادين
وحمـــــود[٦] شـــــيخ البـــــدو حمـــــر التيابـــــه
خيـــــال شـــــول[٧] للمفـــــالي تكـــــازين
وحنـــــا[٨] كـــــما ســـــيف انقـــــضب مـــــن نـــــصابه
نـــــربح الفـــــواد[٩] لنـــــا[١٠] قليلـــــين
ننـــــزل ديـــــار العـــــز ونجنـــــا خـــــصابه[١١]

---

(١) لا تتأخر.
(٢) والد حماد أبو عويلي، وقد مات في الحجاز.
(٣) فرسان بني هلال.
(٤) شجعان.
(٥) يتطلعون إلى الحرب.
(٦) الوحيدي.
(٧) الناقة التي ولدت.
(٨) أي نحن التياها.
(٩) التجار.
(١٠) ولو إنا.
(١١) نجني ثمرة.

والـــــلي يحـــــوف ديارنـــــا نجيـــــه عجلـــــين[١]
بعيـــــال تـــــضرب بالـــــدفك[٢] مـــــا تهابـــــه
ننـــــصب عـــــراضي[٣] دونهـــــا وكـــــم[٤] الألفـــــين
وحيـــــاة مـــــن صـــــور مطـــــر بي ســـــحابه[٥]
مـــــا نفوتهـــــا وحنـــــا عـــــلى الخليـــــل عـــــدلين[٦]

٤- وقعت الواقعة الأولى في «أبي سمارة» والثانية في «كحلة» والثالثة في «شنق»[٧] وقد كان النصر في الأولى والثالثة للتياها وفي الثانية للترابين وفي ذلك يقول الشاعر البدوي:

نهـــــار كحلـــــة ســـــد في أبـــــو ســـــماره
وأمـــــا شـــــنق نـــــستد أحـــــدها لمـــــشاوير

٥- عندما رجع الترابين من هذه المعارك تشاوروا في الأمر، واعتزموا ألا يحاربوا التياها ما دام صقر أبو ستة وأولاده معهم:

فأما أن يعطي حماد الصوفي عطوة إلى أبي ستة فيتمكن هؤلاء من الرجوع إلى منازلهم، أو أنهم لا يحاربون بالمرة، وقد ذهب كبار الترابين إلى الصوفي ليبلغوه هذا القرار؛ فوافق عليه وأعطى الستوت عطوة سنوية بوجه أربعة كفلاء على ألا يمتنع

---

(١) بالسرعة.
(٢) بندقية من تفنك التركية.
(٣) جمع أردو وهي تركية الأصل بمعنى الجيش.
(٤) مقدار.
(٥) وحق الذي خلق المطر من السحاب.
(٦) منتصبين.
(٧) يقول الرواة: إن موقعة شنق كانت حامية الوطيس، وأن جند الحكومة نزلوا إلى الميدان ليحولوا دون القتال فلم يفلحوا.

عن تجديدها في عيد الأضحى من كل عام.

٦- رجع الستوت بعد ذلك إلى منازلهم ولكنهم لم يشاءوا أن يشتركوا في الحرب ضد التياها الذين كانوا لديهم بالأمس طنبًا فخيرهم حماد الصوفي بين الاشتراك في الحرب أو الرحيل إلى ديار غير هذه الديار، فاضطروا إلى الاشتراك في الحرب، واشتبك الفريقان في «العراقيب» ثم في «خويلفة» و«وادي المليحة» وقد كان لواء النصر في جميع هذه المواقع معقودًا للترابين وحلفائهم.

٧- أنشد الشاعر العزامي «سويلم أبو عرقوب» في وصف هذه الحروب الأبيات التالية:

البارحه قلبي شكا لي وخايف
من حربة كفت نجوع صحابه
في بالها تفرق عزيز الولايف
وش رايكو والشور عارف مصابه
أشوف ابن نبهان[1] حنجوري عالبوق ناوي
جمعو عقاب الليل يمشي عقباوي
ديب عدا عالمال وأخطا مصابه
أولاد ابن حماد فوق السلابل
وخيلهم ينطح وجوه الديابل
همي عمود البيت يوم اكترا به
حناجرة فوق المراويح لن جو

(١) يشير إلى أن ابن نبهان كان يميل إلى التياها مع أن قومه الحناجرة كانوا مع الترابين.

بواريـــــدهم مثـــــل الرواعيـــــد في الجـــــو
عيـــــال أبـــــو إســـــماعيل جونـــــا وريـــــدي
خيـــــاهم يـــــنطح وجـــــوه الـــــشريدي
عـــــاليوم ليـــــنهم وكـــــم ميـــــه قرابـــــه
عيـــــال أبـــــو عـــــويلي شـــــفاكه عـــــلى الكـــــرون
خلـــــوا حـــــريم الـــــضد في ليـــــل كـــــانون
يـــــشكوا بلادهـــــم مـــــن ســـــداد الطلابـــــه
وادي المليحـــــة شـــــفت انـــــا العـــــج فوقـــــه
الـــــضهر مـــــا هـــــي طلعـــــة الـــــشمس بوفـــــه
جـــــاكم طليـــــل الـــــسيف واقبـــــل الـــــصابه
هـــــذه الـــــشريعة مثـــــل بنـــــات عجيبـــــه
يحـــــرم علـــــيكم مـــــا تـــــذوقوا وطنهـــــا
مـــــا زال الـــــصوفي بقومـــــو زحنهـــــا
مثـــــل الـــــدبان لقـــــي عليكـــــو مـــــصابه

٨- ولقد تغنى الشاعر التيهي بذكر قومه وما قاموا به من فروسية في هذه الحرب الطاحنة فقال:

يغنـــــي صـــــبي عـــــالج البـــــين خـــــاطره
تـــــرابين يـــــا عـــــز البـــــوادي قباهـــــا
تياهـــــا يـــــا عـــــز البـــــوادي قباهـــــا
عيـــــو عـــــلى جنـــــب الـــــشريعة بقـــــوه

يـــا عقلـــت[١] يـــروي المحـــاريق[٢] جاهـــا
تياهـــا دارهـــم مـــا عفيوهـــا لغـــيرهم
تقـــول غـــز[٣] واقعـــة دون مالهـــا
يـــاكم عـــودة[٤] ســـوق المنايـــا عـــذابها
ومـــن ســـوق للـــدلال يـــشروا بـــدالها
وكـــم خـــودة طـــول الليـــالي ســـهيره
تـــشكي مـــن الرملـــة يتـــامى عيالهـــا

٩- واسمع ماذا يقول أبو عرقوب في مدح حربة بنت حسين أبي ستة وزوجها حماد الصوفي[٥]:

١- حربـــة بلـــور تـــضي ز النـــور في الليـــالي العتمـــه
٢- بتمـــشي هـــز يبراهـــا العـــز عيونها سمر بلا كحل
٣- أبوهـــا ســـور يقـــود صـــقور حماي الحور عن الذل
٤- ســـيفه روبـــاص بيقطـــع الـــراس يوم الضراس مثل النحل
٥- ربعـــه حمـــاد ملـــم جيـــاد وفي ذمتـــي انـــه فحـــل
٦- هـــذا حمـــاد بيعطـــي جـــوخ البس عبجا في بيت أهلي
٧- هـــذا حمـــاد يـــذبح خرفـــان يقري الضيفان مع الهتل
٨- صـــقر الشـــاني عـــزى الثـــاني يركض ع النار وهي شعلى

---

(١) ماء قريب المدى.

(٢) المحاريق أي: العطشانين.

(٣) دولة.

(٤) الفرس الطاعنة في السن.

(٥) عثرت على هذه الأبيات في «تاريخ سيناء» لنعوم شقير.

٩- يـــوم الله عـــاد جانـــا حمـــاد رد الاجـواد مـن الـدحلى
١٠- شـفت الـصبيان يهـــزوا الـــزان ينخوا نـوران واولاد عـلي

١٠- رأى «رءوف باشا» متصرف القدس في ذلك الحين أن الخصام قد اشتد، وأن الوقت قد حان لوضع حد لهذه الحروب الأهلية التي سرت إلى جبل الخليل وكادت تسري إلى أبعد من ذلك، فقام على رأس حملة من الجند ونزل خان يونس حيث جمع بادئ ذي بدء مشايخ الترابين وأقنعهم بوجوب الصلح، ثم قام ونزل الشريعة، حيث جمع مشايخ التياها وجبل الخليل وقام نفس الصلح؛ ولما لم يظهروا ميلا للصلح اضطر إلى استعمال القسوة.

فنفى أشخاصا كثيرين منهم حماد الصوفي، وصقر أبو ستة، وعودة الزريعي من الترابين؛ وحجاج أبو حجاج، وسالم بن نبهان، وفرحان بن قيطش من الحناجرة؛ وابن حماد وأبو حسن الملطعة من العزازمة؛ وحسن أبو شنار، وسليمان الصانع، وزارع الهزيل، وجبر بن عطية من التياها.

وقد مكث هؤلاء في سجن القدس سبع سنوات، ثم خرجوا ورجعوا إلى ديارهم، إلا صقر أبو ستة وحسن أبو شنار وفرحان بن قطيش وسليمان الصانع، فإنهم ماتوا في السجن ولم يشتبك الترابين والتياها في قتال بعد تلك الحادثة.

١١- حدثني «حسن الباطل بن محيسن بن حسن بن حسين الباطل» وهو شيخ طاعن في السن اشترك في حرابة زارع فقال:

(إن الذي تدخل في الأمر من الأتراك كان «عزة باشا» لا رءوف باشا كما تقدم، وأنه هو[1] الذي تدخل في أمر الصلح بين «حماد الصوفي» عقيد الترابين و«حسن أبي شنار» كبير التياها؛ وذلك بأن قال لكل منهما كذبًا أن الآخر بانتظاره في بيت الشيخ

(١) أي: حسن الباطل.

علي العطاونة، وأن الرسول الذي قام بهذه المهمة هو «جبر أبو زمارك»، وأن الاجتماع التمهيدي للصلح جرى في بيت الشيخ علي بن عطية وبين ابن طلاق. والاجتماع الأخير الذي تم فيه الصلح نهائيًا عقد في بيت الوحيدي من الترابين، وأن الفريقين تصالحا وتحالفا على أن «لا يحارب بعضهم بعضًا إلى أن ينشف البحر، أو ينبت في الكف الشعر»[1].

وكان كفيل الترابين في هذا الصلح «ثابت الصوفي» وكفيل التياها «جبر بن عطية» وبذلك وضعت «حرابة زارع» أوزارها بعد أن دامت سبع سنين، ولم يجر بعد ذلك أي خصام بين التياها والترابين).

(١) مثل سائر بين البدو.

الفصل التاسع
في
حرب العزازمة- والترابين

١- قلنا: إن العزازمة أحدث عهدًا في هذه البلاد من التياها والترابين ومن الجبارات سكان البلاد الأصليين؛ ولذلك عندما قام الأخوة السبعة «أولاد عزام» الذين جاء ذكرهم في تاريخ العزازمة وغادروا الحجاز وهبطوا سينا والبلاد الواقعة في جنوب فلسطين واستوطنوا البقاع المجاورة للشلال- خشي سكان هذه البلاد عاقبة أمرهم، فأخذوا يشنون الغارات الشعواء عليهم؛ وظلوا كذلك حتى اضطر هؤلاء إلى مغادرة البلاد التي احتلوها، والتخلي عن قسم كبير منها؛ وفي أثناء هذا التنازع الحيوي كان أول من اصطدموا معهم من العربان الجبارات، ثم التياها، فالترابين.

٢- أما حروبهم مع الجبارات فلم يصلنا عنها إلا النذر اليسير، وكل ما نعلمه عنها أنهم[١] بعد أن اندحروا أمام خصومهم، ورجعوا إلى العريش وما حولها من بلاد عادوا فلموا شعثهم، ورجعوا إلى منازلهم التي احتلوها قبلا حول «الشلال» و«البعيريات» و«القرين» و«العراقيب» وما بينها.

وأما حروبهم ضد التياها فقد أتينا على ذكر شيء منها في «حرابة زارع» إذ كانوا حلفاء للترابين يحاربون وإياهم في صف واحد.

٣- ويظهر أن النتيجة التي آلت إليها «حرابة زارع» لم ترضِ العزازمة؛ إذ إنهم اعتقدوا أن قسمة الأراضي التي اغتنموها وحلفاؤهم الترابين كانت قسمة ضيزى،

---

(١) أي: العزازمة.

وأن نصيبهم منها لم يكن بنسبة الدماء التي سفكوها والجهود التي أضاعوها في تلك الحروب التي ما كان الترابين لينالوا النصر فيها لولاهم؛ ولذلك راحوا يطالبون الترابين في إنصافهم، فلم يشأ هؤلاء أن ينصفوهم أو أن يعطوهم أكثر مما أخذوا؛ وعلى قول أنهم لم يكتفوا بذلك بل أخذوا منهم «السر» و«طويل الحباري» و«الجعيرة» و«الحبيبات» فلم يجد العزازمة بُدًّا من الاحتكام للسيف عملا بقول الشاعر العربي:

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

وهذا ما وقع، إذ أنشبت الحرب أظفارها عام ١٨٨٧ للميلاد، وجرى بين الفريقين وقائع دامية في «الخبير» و«أبي سمارة» و«تل دبيبس» و«كحلة» و«صنوع الشويحي» و«الشلالة» و«العراقيب» و«الشريف» و«عصلوج» و«الخزعلي» و«الضاهرية» و«أم خشرم» و«البرج» و«خشم الجبيل» و«المقرح» و«وادي المشاش» وفي «بئر السبع» نفسها.

وكان النصر في أكثر هذه الحروب حليف الترابين، فخسر العزازمة ١٢٤ قتيلا وألف جمل وعددًا كبيرًا من الخيل والغنم.

٤- وقد استنجد العزازمة بالتياها فأنجدهم فريق قليل العدد، ولم يشأ الفريق الأكبر أن يتداخل في الأمر؛ ولذلك لم يستطع العزازمة تحويل دفة الحرب لجانبهم، بل ظلوا مدحورين أمام خصمهم حتى وصلوا إلى الضاهرية في جبل الخليل وهناك جرت معركة كبيرة كانت هي الفاصلة؛ إذ خسر العزازمة فيها عددًا كبيرًا.

٥- ولما ضيق الترابين الخناق عليهم راحوا يشكون همهم إلى ولاة الأمور في غزة تارة وفي القدس تارة أخرى، وقد حدثني بعض كبار العزازمة أنهم لجئوا إلى بطريرك القدس، وأن شيخهم «حسن الملطعة» عندما يئس من موظفي لواء القدس

بسبب تدخل أفندية غزة شد الرحال إلى الآستانة، وهناك رفع إلى الحكومة التركية شكواه، وأخذ يصف لها ما حل بقومه من جراء ظلم جيرانهم الترابين.

عندئذ أخذ رءوف باشا -متصرف القدس- يفكر بالوسائل الناجعة لإيقاف القتال. ولم يجد -بعد إنعام النظر- أنجع لذلك من الضرب والتهديد فساق عليهم[1] حملة بقيادة اللواء رستم باشا ١٣٠٧ شرقي أو ١٨٩٠ ميلادي.

٦- ما كاد رستم باشا يحط رحاله في غزة حتى جمع إليه مشايخ الترابين[2] لأنهم -على اعتقاده- هم المعتدون، وما كانت الحرب لتصل إلى هذه العاقبة الأليمة لولاهم.

وقد أعمل فيهم عصى التهديد والتأديب حتى أنهم لقبوه «بأبي جريدة» لأنه كان يستعمل جريدة النخل للضرب.

وقد سعى العربان لأن يعدلوه عن قصده بالرشوة، فلم يفلحوا.

ومما يذكروه بإعجاب حتى الآن أن الباشا كان واضعًا طربوشه على منضدة أمامه، وكان قبل أن يبطح الشيخ ويضربه يشير إلى الطربوش ويجعل نفسه كأنه يخاطبه ويقول: (يا طربوش! بدك فلوس وإلا ناموس!) ثم يصنت برهة ويقول: (بدي ناموس!) أي: إنه لا يقبل الرشوة ويود إنقاذ البلاد وشرفها، ولم يكتف رستم باشا بالضرب، بل سجن فريقًا منهم، وساقهم إلى القدس.

٧- عندئذ هدأت العاصفة، ونامت الفتنة، وعادت مياه الأمن إلى مجاريها؛ فلم نعد نسمع بحوادث القتل، والسلب، وقطع الطرق، والاعتداء على الغير؛ تلك

---

(١) بعد خراب البصرة.

(٢) الشيخ حماد الصوفي، الشيخ حمد الزريعي، وأبو شباب، وأبو حجاج، والشيخ حمود الوحيدي وقاعود أبو مغيصيب.

الحوادث التي طالما وقعت قبل هذه الحملة التأديبية والتي ذاق سكان غزة مرارتها أكثر من غيرهم.

٨- ولقد رأى رستم باشا من الحكمة تأسيس مخفر للدرك في «الجهير»[١] خشية أن ينتقض العربان مرة أخرى، وقد كان عدد الجنود في هذا المخفر عشرين في أيام الحراث وعشرة في سائر الأيام؛ ذلك كان أول مخفر نظامي للدرك أسسه الأتراك في هذه البلاد ١٨٩٤م ومن رجال هذا المخفر الشاويش مصطفى الأرناءوط[٢] الذي كان العربان ولا يزالون يذكرونه بشيء من الإجلال والإكبار.

٩- رأيت مما تقدم أن رحى الحرب بين العزازمة والترابين لم تقف إلا قبيل تأسيس هذا القضاء بعشر سنوات تقريبًا.

وأود أن أزيدك الآن علمًا أن الصلح جرى في «قلعة مليح» على الطريق بين غزة والسبع، وذلك بمعرفة الحكومة، وقد وقع على صك الصلح الشيخ محمد بن عياد الصوفي عن الترابين والشيخ سليمان بن صالح جخيدم عن العزازمة، والأسس التي بني عليها الصلح هي «هدام وردام» أو ما يسمونه «حفار ودفان» سوى الفعل المعروف فاعله.

ومن شروط الصلح أيضًا أن يسترد كل إنسان الأرض التي كانت له قبل نشوب الحرب، فنفذت الشروط، واستتب الأمن، وسادت الطمأنينة فأخذ البدو يزرعون أراضيهم (انظر إلى الصورة) بسلام وهدوء وراحة لا عهد لهم بها من قبل.

---

(١) «الجهير» مغارة قديمة العهد متسعة الجوانب واقعة على بعد تسعة عشر كيلو مترًا من موضع السبع الحالي للجهة الغربية الشمالية.

(٢) يخيل إليك، وهو يتحدثون عن الأرناءوط إنهم يحدثونك عن «أبي زيد» وأبطال بني هلال.

بدوي يحرث أرضه باطمئنان بعد توطد الحكم في البلاد

الفصل العاشر
في
حرابة يطة- والظلام

١- تلك حرب شبت نيرانها بين عرب «الظلام» وبين «يطة» من أعمال جبل الخليل في التاريخ الذي أنشئت فيه مدينة السبع الجديدة ١٩٠٠ للميلاد أو قبيل ذلك بمدة وجيزة، وقد انتهت قبيل التجمع للحرب الكونية ١٩١٤ للميلاد بسنتين.

وعلى قول: إنها لم تدم إلا سبعة أعوام.

٢- اصطلى بنارها عدد كبير من الفريقين، وكادت تلتهم الأخضر واليابس في كلا الجانبين، كل ذلك من أجل بقعة من الأرض مساحتها عشرون ألف دونم يقال لها «تل عراد» وهي متاخمة للقيسية[1] والجهالين والظلام، تبعد عن السبع خمسة وثلاثين كيلو مترًا من الجهة الشرقية الشمالية.

زعم كلا الفريقين أنها له، وأنه أحق من غيره بالاستيلاء عليها؛ ولما لم يتفقا احتكما إلى السيف والرمح. فسالت دماء ما كانت لتسيل. وزهقت أنفس ما كانت لتزهق، لو قيض الله لهذه البلاد حكامًا عادلين.

٣- وقف الجهالين بادئ ذي بدء في صف اليطاطوة، وقد كان شيخهم آنئذ «سليم بن ضيف الله أبو داهوك»؛ ولكنهم عادوا فانفصلوا عنهم بعد حين، وفي الاجتماع الذي عقدوه في «رأس وادي سيال» اتفقوا مع الظلام على أن يخرجوا من الميدان، وأن يقفوا من الفريقين موقف الحياد، فانسحبوا بعد أن رجع إليهم الظلام

---

(١) يطلق هذا الاسم على أهل جبل الخليل كلهم؛ بيد أن المقصودين هنا هم سكان قرية يطة فقط.

كل ما نهبوه منهم.

٤- كلا الفريقين يرمي تبعة الحرب على صاحبه. وقد حدثني «الشيخ محمد قبوعة» الذي حضر الحرب من أولها إلى آخرها، والذي كان له شأن غير يسير فيها أن اليطاطوة هم الذين تحرشوا بالظلام؛ إذ أرادوا أن يستولوا على «تل عراد» عنوة، وأنهم هم الذين فتحوا باب العداء على مصراعيه؛ إذ انقضوا على الأرض وسكانها بخيلهم ورجالهم ومحاريثهم، وأن الظلام ما كانوا ليجنحوا إلى امتشاق الحسام لو أن الحكومة أنصفتهم.

٥- كانت قوى الفريقين متعادلة: أربعمائة رجل من اليطاطوة وأربعمائة وخمسون من الظلام: مائة من هؤلاء فرسان، ومائتان هجانة، ومائة وخمسون مشاة. ولكنهم كلهم مدججون بالسلاح، وسلاحهم السيف والرمح والبندقية التي كانوا يقولون لها «عثمانلي» في ذلك الحين.

٦- ولقد نشبت بين الفريقين معارك دامية أولًا في «المغرقة» ثم في «رأس وادي سيال» وفي «القريتين» و«تل عراد» و«كسيفة».

انتصر الظلام في الأولى والثانية منها، وانهزموا في الثالثة، وكانت دفتا الميزان كفرسي رهان في الرابعة، ولكنهم فشلوا في الخامسة.

ويظهر أن اليأس لم يفعل فيهم فعله المنتظر على أثر هذا الفشل؛ إذ ظلوا يناوئون أعداءهم بطريق المباغتات الفردية[1]، إلى أن جرح عقيدهم «الشيخ سالم بن عيد أبو ربيعة»[2]، وجرح ولده خليل، وخشوا أن يبوءوا بالفشل إذا ساروا لوحدهم من

---

(١) وهو ما نسميه في يومنا هذا بحرب العصابات، وقد لا يخلو من فائدة أن نذكر هنا أن البدو ألفوا هذا النوع من الحروب، وهم يؤثرونه على الحرب في صف وقيادة ونظام.

(٢) جد الشيخ سلمان أبي ربيعة شيخ الهميسات اليوم.

غير قائد يقودهم. ولاسيما لأن عددًا غير قليل من رجالهم الذين كانوا يشيرون إليهم بالبنان قد قتل في المعارك المتقدم ذكرها ومنهم «خميس أبو جويعد» و«سليمان الأطرم الجنبوبي» و«حسن بن سلامة القرعان».

ولا تنسَ أن البطاطوة أيضًا خسروا عددًا غير قليل من رجالهم الظاهرين مثل «عبد الله بن حرب مغنم» و«أبي مر» و«عبد الله الهدار» و«محمد عربي» و«ابن شريح»، كما أن كبيرهم نفسه وهو «شحادة أبو عرام» بترت ساقه فلم يعد يقوى على النزول إلى الميدان، وقد كان فارسًا جريئًا ومغوارًا لا يصطلى له بنار.

٧- حاولت الحكومة التركية أن تقنع الفريقين بالكف عن القتال، وبالالتجاء إلى الطرق الإدارية والوسائل السلمية في حل الخصام؛ ولكنها لم تفلح، بالرغم من أن التعب كان قد أنهك قواهما؛ فاضطرت حينئذ أن تتخذ من التدابير أشدها وأقساها، لتحول دون سفك الدماء، فاستولت على «تل عراد»[1] وجعلته من أملاك الدولة «جفتلك»، ثم كبلت عددًا كبيرًا من مشايخ الفريقين[2] بالحديد، وسجنتهم بالقدس، وقضت على بعضهم بالسجن خمسة عشر عامًا، وعلى البعض الآخر بالشنق.

فقامت قيامة الظلام على أثر ذلك، وأوفدوا فريقًا منهم إلى الآستانة ليشكو،

---

(١) والغريب أنها حصلت على شهادة موقع عليها من الفريقين بأن هذا الحل أوفق لمصلحتها، فكانا بعملهما هذا مصداقًا للمثل السائر: اقتلوني واقتلوا خالدًا معي.

(٢) سالم بن عيد أبو ربيعة، وولده خليل، وسليمان ومحمد والحاج سلامة وغنيم أولاد الحاج سالم القرعان، وعلي بن عيد المداني، وسليمان بن جميعان الهترسي، وحميد بن عيد أبو جويعد، وسليمان بن حسن أبو قرينات، وحماد وعلي ولدا سليمان الحسوني من الظلام؛ ومحمد أبو عرام، وأبو صبحة، والهرين، والهايس، وآخرون لم أعثر على أسمائهم من البطاطوة.

وقد نجح هذا الوفد في شكواه بمساعدة شكري بك الحسيني[1] ونخبة من رجال العرب الآخرين الذين كانوا في فروق في ذلك الحين، فأطلق سراح المسجونين.

٨- وما هو إلا يوم أو بعض يوم حتى عادت المياه إلى مجاريها بين الفريقين، وتم الصلح بينهما على أساس «حفار ودفان»، ولم نعد نسمع ذكرًا للحرب بينهما منذ ذلك الحين.

(١) كان معدودًا من عيون الدولة ورجالها الأفذاذ، وكان يمت بالنسب إلى كامل باشا الصدر الأعظم.